

المهابهاراتا

بقلم الدكتور محمد اسماعيل الندي

هذه الملاحم والأساطير ، ثم تلاها هذه الملحمة الخالدة « المهابهاراتا » فى مكاتبتها .

وقد ظهرت الملحمة الشهيرة «الرامايانا» فى القرن العاشر قبل الميلاد تقريبا ، وتناقلتها الألسن من جيل الى جيل ، ومن عصر الى عصر، حتى اتخذت الصورة الحالية فى القرن الخامس او الرابع قبل الميلاد . وبهذا تكون هذه الملحمة

قد سجلت بعد مرور قرون على ظهورها على مسرح هذا العالم أما الملحمة الشهيرة « المهابهاراتا » فهى تصور تلك المعارك التى دارت بين فرعين من أسرة واحدة ، وذلك فى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد (٣) . ثم ظل يضاف اليها قصص كثيرة وأحداث ووقائع ومشاهد ونظريات وعقائد دينية لا حصر لها حتى بعد القرون الميلادية الأولى ، وبالتأكيد حتى القرن الخامس الميلادى ، كما يرى الاستاذ «F.W. Thomas» (٤) لأن

كان قدوم الآريين الى الهند بعد سنة ١٥٥٥ ق.م مبعث نهضة فكرية وثقافية عظيمة فيها . وذلك لأنها دفعت الى الالتقاء الفكرى بين الحضارة الهندية الاصيلية وهذه الحضارة الواردة التى ظهرت فى أوروبا واستقت من ينابيع شتى مثل حضارة الشرق الأوسط مهد الحضارة ومهبط رسالات السماء (١) .

فلما استوطنت الأمة الآرية المناطق الشمالية فى الهند وأقامت بين شواطئ نهري الجنجا والجمنا، خاضت معارك عنيفة كثيرة مع تلك الأمم القديمة القاطنة بها . كما احتكت بها ثقافة و لغة وديننا وتقليدا . وكان لهذا الاحتكاك وذلك التجاوب مظاهر شتى عديدة . منها : ظهور الكتب المقدسة مثل « القيدا » والملاحم والاساطير والمسرحيات . وقد احتلت « الرامايانا » (٢) المكانة الأولى بين

(١) انظر ما أوردنا عن الآريين وأصلهم ونزوحهم الى الهند فى مقالنا عن الرامايانا فى مجلة « تراث الانسانية » فى عددها الصادر فى أغسطس ١٩٦٤ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) The Ramayana and the Mahabharata by

Romesh C. Dutt p. 169.

(٤) انظر مقاله فى : The Legacy of India P. 78.

لأنها هي الأخرى كانت تتناقلها الألسنة على مر الأجيال ، حتى تم تسجيلها في أوائل القرون الميلادية .

وقد ساهم الشعراء والمفكرون منذ أجيال ساحقة في اضافة آرائهم واتجاهاتهم الى المهاباراتا . يرى الأستاذ «Romes C. Dutt»

أن هذه الملحمة قد أصبحت مرتعا خصبا للمفكرين الهندوس ليضيفوا اليها ما شاءوا من أفكارهم ونزعاتهم . وذلك لأنه قد سجلت فيها القوانين واللوائح التي سنتها الأمة الهندوكية على مدى العصور ، كما دوت فيها تلك الأحداث التاريخية والوقائع والتقاليد لجميع الأمم والطوائف التي عاشت في الهند على مر الاجيال وحتى ظهور هذه الملحمة . وبهذا تتجلى الحياة الهندوكية كلها وعلى حقيقتها بين دفتي هذه الملحمة كشاهد حية رائعة وصور حقيقية تنبض بالحياة والخلود^(١).

وحينما ننظر الى التطور الفكري الموجود في هذه الملحمة نجد أنها تحتوى على الأصول والعقائد التي سادت الهند منذ بداية القرن الميلادى وذلك بعد أفول نجم البوذيين كقوة اساسية هائلة وعقيدة مهيمنة على الهند لأن مبادئ كرشن أحد آلهة الهندوس - قد اتخذت طريقها في حياة الهندوس في هذا العصر سياسيا واجتماعيا ومن هنا نجد أن هذه المبادئ كلها قد أضيفت الى المهاباراتا وصيغت بصياغة شعرية حديثة في هذا العصر ، مع أن أصل الملحمة قديم ، يرجع مبدؤه الى آلاف السنين^(٢).

القصة الأساسية في « المهاباراتا » تذكرنا بتلك الوقائع التي ظهرت قبل الرامايانا ، والتي تضمنتها بعض كتب « الفيدا » ، الا أنها تحتوى كذلك على قصص ومشاهد ظهرت فيما بعد ، اذ نجد فيها أسماء تلك الأمم والقبائل التي عاشت بين فترتي ١٠٠ ق.م - ٢٠٠ م ، مثل : ياوانا ، وساكّا ، و باهلوا^(٣) .

ولم تكن المهاباراتا من تأليف شاعر أو شاعرين ، بل شارك في اعدادها عدد من الشعراء على مر العصور والأزمنة ، اولئك الذين بلغوا مكانة كبرى في اللغة السنسكريتية ، وملكوا ناصيتها ، اذ تحكى الأساطير أن الاله « حانيسا » هو الذى ألف هذه الملحمة ، وذلك أنه كسر أسنانه الطويلة لشدة حماسه واندفاعه ، وكتب المهاباراتا التي أملاها عليه الاله « ثياسا » . هذا الاله يحب العلوم والمعارف غاية الحب ، وهو يبدو على شكل فيل . ولذا الفت هذه الملحمة^(٤).

يبدو من خلال دراسة التراث الهندوكى أن صيادا من صيادى الأسماك نظم هذه الملحمة أول ما نظم ، ولكنها تطورت فيما بعد نتيجة جهود الشعراء الآخرين التي بذلت فيما بين القرنين الرابع قبل الميلاد والقرن الأول الميلادى^(٥) . وبهذا تشبه اختها الرامايانا ، اذ أنها هي الأخرى كانت تتناقلها الألسن على مر الأجيال حتى صارت على الصورة الحالية في القرون الأخيرة قبل الميلاد . وهذه الظاهرة تذكرنا بالمراحل التي قطعها التراث الفكرى لدى الأمم السامية القديمة ، ولاسيما التوراة ووصولها الى الصورة الحالية .

(١) انظر . The Ramayana and the Mahabharata p. 324

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) انظر : The Legacy of India p. 78

(٤) انظر : Hinduism by K.M. Sen p. 75

(٥) انظر : Hinduism by Louis Renon p. 119

وعلى الرغم من كل هذه الاضافات والتطورات فى المهابارات فلم تتغير روحها الأصيلة واطارها الحقيقى الذى وجدت عليه فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، بل كل هذه الزيادات تدور حولها وتمنحها بالتالى قوة وحيوية ، وتجدد عقائدها ومبادئها لتتنشى مع تغير البيئة والظروف والحياة الاجتماعية .

ومن الناحية التاريخية فإن هذه الملحمة تصور تلك المعارك التى دارت بين فرعين من طبقة البراهما ، تلك التى كانت تحكم المناطق الواسعة فى شمال الهند بين نهري الجنجا والچمنا . ويمكننا تحديد هذه المناطق بأنها التى تقع فيها الآن مدينة « دلهى » عاصمة الهند الحالية .

وتحكى الملحمة أن أسرة آرية من البراهما تسمى « كورو » كانت تحكم دلهى وما يجاورها من البلدان . وفى الفترة التى تبدأ فيها هذه الملحمة يرث الحكم أخوان من هذه القبيلة وهما : « باندو » و « دهيراتا راشترا » . وقد أنجب الأول ستة من الاولاد الذكور ، ثم توفى ، فاعتلى العرش اخوه الاعمى « دهيراتا راشترا » ، ذلك الذى أنجب مائة من الاولاد الذكور . وبين هؤلاء الاخوة المائة وبين الستة دارت تلك المعركة التى سجلتها هذه الملحمة المقدسة .

ومما يسترعى انتباهنا هنا ان الهند فى تلك الآونة كانت منقسمة وممزقة الأوصال اذ يحكمها المئات من الملوك . وهذه الظاهرة تسببت فى حدوث معارك كثيرة فى تاريخ الهند لدواع عديدة واغراض شتى مثل الصراع بين الطبقات والأجناس المختلفة للسيطرة والتغلب أو المعادات أو الخلافات أو شهوة فرض نظرية معينة على المناطق الأخرى .

وعلى الرغم من أن مؤلفى الملحمة حاولوا تصوير المعارك بصورة عامة ، ولتشمل جميع المناطق الهندية ، إلا أنها لم تتجاوز المناطق الشمالية فى الحقيقة ، ولذا لا نجد لها أثرا فى جنوب الهند ، بخلاف ملحمة الرامايانا التى تصور تسرب الأفكار الآرية ونفوذها السياسى الى المنطقة الجنوبية .

تبدأ الملحمة بالحياة الفرحة الطيبة فى دولة « كورو » تحت حكم ملكها الأعمى « دهيراتا راشترا » ذلك الذى نجح فى اجتذاب أولاد أخيه اليه بسبب عطفه البالغ عليهم ، واعتناؤه الشديد بهم ، كما كانت تعيش معه فى قصره أرملة أخيه مع أولادها الخمسة ، وهم « يودشترا » - وهو اكبرهم ، و « ارجن » - اشجعهم ، و « بهيما » - اهمهم ، ثم « ناكولا » و « شهاديوا » . ولكن أبناء الملك الأعمى المائة لم يظهر منهم على المسرح كالمنافس لأبناء عمه او كبطل من الأبطال سوى ابنه الأكبر « دوربودان » .

فلما كبر هؤلاء جميعا نشأت بينهم الحزازات والتنافس وشهوة الاستعلاء . فتكون من اولاد الملك الأعمى حزب بقيادة ابنه الأكبر « دوربودان » ، وتكون لأولاد أخيه حزب بقيادة « يودشترا » وتصارع هذان الفريقان على مرور الأيام للاستيلاء على الحكم بعد موت الملك الأعمى . ولم يكن من أبناء الملك احد يشبه « ارجن » فى الشجاعة والبطولة ، ذلك الذى لعب أعظم الأدوار فى هذه الملحمة . ولكن سرعان ما انضم الى « دوربودان » بطل كبير هو « كارنا » الذى لا يقل عن « ارجن » فى شجاعته وبطولته . ولكن من سوء الحظ لم يكن من طائفة البراهما ، بل كان ينتمى الى طائفة أخرى دونها .

كما ان اله الشمس وهو «سوريا» يقف مع «كارنا» ويشد أزره . وهذا الاله في الأسطورة الهندية يشبه تخضع لها البحار والطبيعة الفتانة والسحاب والليل والنهار . وهو الآخر ينحدر من سلالة البراهما . انسانا أحمر ، ويملك ثلاث عيون ، وأربع أيد ، ويحمل في يديه زهرة اللوتس ، وفي الثالثة البركات ، ويشجع عباده بالرابعة .

وكما نجد ظواهر غريبة عديدة تلفت أنظارنا منها : ان الملكة «درايوبادى» التى فاز بها ارجن فى المسابقة ، قد أصبحت زوجة للاخوة الخمسة فى بادىء الأمر ، ثم تصف الملحمة أن أخاه الأكبر قد اتخذها زوجة له من دون أخوته الأربعة . وهم بدورهم قد تزوج كل منهم فيما بعد بواحدة من النساء الأخريات . وهذه الظاهرة غريبة جدا بالنسبة الى الديانة الهندوكية ، اذ أنها لم تشهد فى تاريخها الطويل مثل هذا الاشتراك فى الزوجة الا أن بعض القبائل الهمجية فى غابات الهند أو فى التبت لاتزال تتبع هذه التقاليد . ولذلك يرى الهندوس ان هذه الواقعة شاذة جدا ، اذ لا يوجد لها شاهد آخر فى التاريخ الهندوكى كله .

ومما حدث بعد ذلك أن أبناء «باندو» الخمسة قد توارثوا حكم الناحية الشرقية من نهر الجنجا ، واعتلى عرشها أخوهم الأكبر «يودشترا» الذى اتخذ المدينة القديمة « اندرابراشنا » عاصمة له . أما عمه الملك الأعشى فلم يزل يملك المناطق الغربية على ساحل نهر الجمنا . وسوف يخلفه ابنائوه المائة ، ويمثلهم «دوريودان» أكبرهم .

وطبقا لتقاليد ملوك الهندوك حينذاك فقد أقام «يودشترا» احتفالا كبيرا بمناسبة توليه العرش . وحضره معظم الملوك من أقاصى بلدان الهند ، وكان من بينهم عمه الملك الأعشى وأبناءؤه

وقد كان لملوك الهند آنذاك تقليد غريب عند اختيار العريس للاميرات . فهم كانوا يعلنون عن مسابقة بين الأمراء الهندوس لاختيار أحسن عريس لبناتهم من بينهم . وكان يفوز بالأميرات من كان يحوز قصب السبق . وقد حدث فى هذه الآونة أن ملكا من الملوك المجاورين لهم أعلن عن مثل هذه المسابقة لزواج ابنته الجميلة «درايوبادى» وقد اشترك فى هذه المسابقة «ارجن» ليمثل اخوته الأربعة ، و «كارنا» حليف الاخوة المائة . وقد حاول «كارنا» تقديم نفسه لخوض معركة السباق قبل «ارجن» والفوز بالأميرة ولكن الأميرة رفضته بسبب انتمائه الى الطبقة الدنيا ، وهى من البراهما وقد حاز ارجن قصب السبق وظفر بالملكة ، وعاد بها الى بلاده . وكان انتصاره فى الحقيقة انتصارا كبيرا لطبقة البراهما ، أعلى الطبقات الهندوكية . فقد رفع من شأنهم أمام جماهير الهندوس على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم . وهذا الفوز لارجن أثار سخط أبناء عمه وغيرتهم منه وحقدهم عليه . فقرروا الاساءة الى سمعته وسمعة اخوته ، والنيل من كرامتهم وحرمانهم من العرش بأية وسيلة أو حيلة ممكنة .

ومما يلفت نظرنا هنا أن «كرشنا» وهو الشخصية الأسطورية نظرا لأول مرة فى هذه المسابقة كمشاهد ومشجع لأرجن . وهذه الشخصية قد أصبحت بمرور الايام الها من الآلهة الهندوس . ومن هذه الفترة نجد «كرشنا» يقف دائما الى جانب «أرجن» فى السراء والضراء . وكما تحكى الملحمة أن كرشنا زوج أخته من ارجن البطسل وكذلك نجد ظاهرة غريبة فى هذه المسابقة وهى أن الاله «اندرا» يساعد ارجن فى جميع المواقف ويقف معه . وهذا الاله صاحب أعظم قوة فى الكون

المائة . وفى هذا الاحتفال الكبير الرائع حقد عليه الاخوة المائة ، ولم يرضوا بالشهرة التى نالها فى هذه المناسبة ، ومكاته التى تبوأ بها قلوب الملوك بالنسبة اليه . ولذلك عزموا من جديد على تنفيذ خطتهم التى وضعوها للقضاء على ابناء عمهم الخمسة واتزاع عرشهم من أيديهم .

كان الملك «يودشترا» الجديد فى غاية الاخلاق والعدل ، ويتمتع بشعبية كبيرة فى أرجاء بلاده، الا أنه فى نفس الوقت كان يلعب القمار ، بل كان مولعا به . وقد اتفق ابناء عمه على أن يتخذوا من هذه الهواية وسيلة لتحقيق مآربهم وتجريده من العرش . فتحالفوا مع ملك من ملوك الهند كان بارعا فى هذه اللعبة على أن يسانداهم فى المقامرة مع «يودشترا» لاتزاع ملكه . ومن سوء حظ «يودشترا» أنه وقع فريسة كيدهم ، فقامر معهم وخسر كل ما كان يملك من الأموال ، ثم رهن عرشه وزوجته واخوته حتى نفسه وخسر هذه الأشياء . وأصبح هو وزوجته واخوته رهيناً لأبناء عمه ورقيقا لهم .

ومن هنا تبدأ ملحمة المهابهاراتا الحقيقية التى تصف محنة هؤلاء الاخوة الخمسة ، والملكة «درايوبادى» التى تلعب دور البطولة فيها . فقد حاول «دوريودان» استئخداهم هؤلاء رقيقا له ولأخوته المائة ، كما أراد أن تصبح «درايوبادى» أمة له خالصة من دون اخوته ، الا أنها قاومت مقاومة شديدة ورفضت الخضوع له ، وأبت الا أن تكون حرة وزوجة مخلصة لزوجها ، مهما كان الثمن ، كما تعهدت بالانتقام من هؤلاء الأشرار . وقد باءت جميع محاولاتهم وحيلهم لاختضاعها بالفشل ، كما تدخل والدهم الملك الأعمى فى أمر أبناء أخيه ، وأجبر ابناءه على اطلاق سراحهم

وتحريرهم ، الا أنهم أصروا على نفي هؤلاء الى الغابة حيث يقضون اثنتى عشرة سنة .

ونلاحظ هنا مواقف عديدة غريبة ومشاهد مدهشة كثيرة ، وذلك أن «يودشترا» الذى خسر كل شئ بالمقامرة ليلعنه أحد ، لا اخوته ولا زوجته ولا آلهته حتى ولا كرشنا الذى يشكل دور الاله فى هذه الملحمة . كما نلاحظ من خلال قراءة هذه الملحمة أن القمار لم يكن جريمة فى الديانة الهندوكية . ولكن من ناحية أخرى نجد أن الآلهة وكرشنا والملك الأعمى والدنيا كلها تلعن « دوريودان » الذى كسب عرش « يودشترا » بتلك الحيلة الغريبة . وعلى الرغم من كل هذا فنحن نرى أن اخوة يودشترا يخضعون له ، ويعيونه دائما ، ولا يتمرّدون عليه على أى حال من الأحوال ، ولا يلعنونه بسبب مقامرته التى أحالت حياتهم الى مأساة وجحيم ، بل يقبلون حكم النفى بكل سرور ويرافقون أخاهم مشاركين له فى الهم والكرب . وهذه الظاهرة تفوق حد الغرابة والدهشة .

لقد عاش الاخوة فى المنفى وسط غابات كثيفة الأشجار ومليئة بالحيوانات والوحوش بجانب امتلائها بالمناظر الخلابة والمشاهد البديعة والأنهار الجارية — فى حياة طيبة ، يعبدون الآلهة ويؤدون الطقوس . كما رافقهم فى هذه المغامرة « كرشنا » أيضا . وزارهم فيها كبار الكهنة والرهبان ليزيدوا من رباطة جأشهم ، ويعيدوا الى قلوبهم الطمأنينة والرضا . وبالإضافة الى هؤلاء الزوار فقد زارهم أيضا الاله « سيفا » — كبير الآلهة — ذلك الذى منح الاله «أندرا» قوة هائلة محققا بذلك امانه كما تصف الأساطير الهندية .

وأهم ما حدث فى هذا الصدد أن هؤلاء الزوار

كانوا يقصون عليهم قصصا ، ويحكون لهم حكايات تصور مآسى تشبه مأساتهم بجانب ما تحويه من العبر والمواعظ . وهذه القصص والأساطير الاضافية أصبحت مادة خصبة فى الآداب الهندية وهى التى استوحاها الشعراء والقصاصون فى أعمالهم الأدبية . وبالتالى كانت مادة غزيرة للمسرحيات الشهيرة التى الفت فيما بعد مثل مسرحية « شكنتلا » (١) لكاليداس ، ومسرحيات أخرى شهيرة ، كما أنها تعد ذخيرة هائلة نابضة بالحياة لمؤلفى الروايات والقصص فى اللغات الهندية حتى يومنا هذا .

وقد تعهد الاخوة أن يقضوا فى الغابة اثنتى عشرة سنة ، ثم يخرجون منها ويعيشون سنة كاملة مختلفين عن أنظار الناس ، وإذا أخطئوا فى شرط من هذه الشروط فسيعادون الى المنفى حيث يقضون اثنتى عشرة سنة من جديد . فلما استكملوا فى المنفى المدة خرجوا ليقضوا سنة أخرى مختلفين عن أنظار الناس . فلجئوا متكرين الى بلاط ملك من الملوك المجاورين لهم وهو « فيراتا » فظهر « يودشتير » فى زى رجال الكهنوت ، وقدم ارجن نفسه على أنه سيدة تلبس الأساور والحلى لأن ظهوره على حقيقته كان خطيرا للغاية بسبب بطولته وشجاعته ، وكذلك اتخذ الآخرون اشكالا عديدة ، كما أصبحت الملكة « درايبادى » خادمة فى القصر .

وقد حدث فى هذه الآونة أن « دوربودن » ولى عهد الملك الأعمى شن غارات وحشية على مملكة « فيراتا » التى لجأ اليها هؤلاء الاخوة ،

(١) انظر مقالنا عنها فى مجلة تراث الانسانية فى عددها الصادر فى أغسطس ١٩٦٥ .

واستولى على ابقارها وأغنامها وعاد الى بلاده منتصرا غانما . فقرر الملك فيراتا الانتقام منه ، وتأديبه . وهنا يعرض ارجن نفسه لقيادة جيشه ، ويقود المعركة ويهزم ابن عمه هزيمة منكرة ، ثم انقضت سنة كاملة وحل ميعاد ظهورهم واسترداد عرشهم فى الوقت الذى تكونت فيه لهؤلاء الاخوة الخمسة المطرودين قوة هائلة بسبب تحالفهم مع الملك « فيراتا » ، ومع أصدقائهم وأصهارهم . فطلبوا من « دوربودن » إعادة عرشهم ، فأبى الاستجابة الى طلبهم بحجة أنهم خسروه بالقمار ، وليس لهم حق فى استرداده . وقد نصحه أبوه « الملك الأعمى » وكبار رجال الدولة والكهنة حتى « كرشنا » فى أن يرد اليهم عرشهم ويكتفى بعرش أبيه ، وذلك تجنباً لسفك الدماء والقتال المريع ، ولكنه أبى وأصر على موقفه وقراره . وهنا تقف الملحمة مرة أخرى الى جانب الاخوة الخمسة وتثبت ظلم « دوربودن » وطغيانه وتمرده وسوء أخلاقه ومعاملاته . ونتيجة لذلك كان من الضرورى أن تبدأ المعركة بين الطائفتين . وهذه هى ملحمة المهابهاراتا الحقيقية ومعركتها الطاحنة التى دارت رحاها فى ربوع الهند مايقرب من ثمانين يوما . وكانت هذه أعظم معركة تدور رحاها فى الهند كما تصفها الملحمة اذ أن الشعوب الهندية كلها اشتركت فيها كحلفاء لكل من الفريقين .

كان كرشنا — كما قلنا — يقف دائما الى جانب « أرجن » ويلقنه تعاليمه ويرشده الى مبادئه . وهذه المبادئ والتعاليم هى التى تمخضت عن « جيتا » الكتاب المقدس للهندوس (١) .

(١) انظر مقالنا عن « جيتا » فى مجلة تراث الانسانية فى عددها الصادر فى أغسطس ١٩٦٤ .

لم يخض « ارجن » المعركة فى بادىء الأمر بسبب وجود أعز اصدقائه فى صف عدوه وبجانبه، ولذلك حارب قواده ورجاله وأبنائهم، وأبناء اخوته، حتى لقي معظم هؤلاء مصرعهم كما سقط فى المعركة فلذة أكبادهم واحدا بعد الآخر، وكذلك أولاد اخوته، وأما من جانب العدو فقد سقط كبار القواد والكهنة ولم يبق من الأبطال سوى «كارنا» الذى تصفه الملحمة وتجعله ندا لأرجن فى القوة والبطولة. ولكن النصر كان مكتوبا لأرجن، فسقط منافسه فى النهاية صريعا.

وفى اليوم الثمانين كانت المعركة حامية فاصلة اذ أنها دارت بين دوريون قائد المعركة والعدو اللدود ليودشترا وارجن وبين « بهيما » أخو أرجن الصغير. وفى هذه المعركة أيضا انتصر أبناء باندو وقتل « دوريون » وأعوانه وأنصاره واخوته المائة، حتى أصبحت الرؤية واضحة لأبناء « باندو » ليحكموا الهند وضفتى نهري الجنجا والجنما دون منافس أو عدو.

كانت هذه المعركة كارثة كبرى ونكبة عظيمة حلت بالهند وبهذه الأسرة الملكية الكبرى بالذات. وما أن تم النصر حتى تعالت الأصوات وكثر الصراخ والأنين والبكاء الذى وصل الى عنان السماء لأن الأموات تركوا وراءهم أراملهم وأبنائهم. وتحول القصر بعدهم الى مأتم، وتحولت حياة الملك الاعمى وزوجته وأرامل أولاده الى جحيم. وبهذا جلبت الحروب لهؤلاء ويلات ومآس لم تشهدا الهند من قبل. كما أحرقت جثث المقتولين بأخشاب الصندل على شاطئ نهر الجنجا طبقا للتقاليد الهندوكية، ونثر رمادهم فوق النهر المقدس.

وقد انتهت الملحمة الحقيقية بانتهاء الحرب ولكن أضيفت اليها أحداث أخرى وأمور هامة منها أن « يودشتير » يعتلى العرش ويسن قوانين جديدة دينية واجتماعية ومعظمها مستمد من مبادئ كرشنا وأصوله وتعاليمه التى يتكون منها « جيتا » الكتاب المقدس. ويبدو لنا من خلال دراسة هذه الملحمة أنها كانت فى الحقيقة للقضاء على المبادئ الهندوكية القديمة وفرض مبادئ جديدة دعا اليها كرشنا.

وتحكى الملحمة أن يودشتير شعر شعورا بالغا بالأخطاء والمعاصى التى ارتكبها من جراء هذه الحرب التى قضت على الآلاف وتركت أبناء المقتولين وأراملهم فى بؤس وألم وأنين وبكاء. فأراد الكفارة عن ذنوبه طبقا للتقاليد الهندوكية فبعث حصان السلام الى البلاد المجاورة لى يعود الحصان بسلام ثم يقدمه قربانا للآلهة كفارة لذنوبه. وقد رافق أخوه أرجن هذا الحصان لى يحارب كل من يمس به سوء أو لا يعترف بسيادته ورسالته، فحارب أرجن كثيرا من الطغاة من ملوك الهند المجاورين له وضم ملكهم الى ملك أخيه، وأعلن الصداقة والسلام مع كل من رحب بالحصان واحترمه. فلما عاد أرجن بعد هذه الرحلة المثيرة فاتحا بلادا كثيرة ومعلنا سيادة أخيه على البلدان المجاورة قدم الحصان قربانا للآلهة.

أما الملك الأعمى وزوجته فقد تركا بلادهما من شدة الحزن والألم على موت ابنائهم ولجآ الى غابة حيث فاجأتهما النار وقضت عليهما. ولذا فهما يعدان شهيدين وفقا للديانة الهندوكية. ثم أعلن « ابن ارجن » ولى العهد ابن عمه « يودشتير »،

وغادر الجميع قصورهم فى طريقهم الى رحلة الموت . فليجئوا الى غابة أقاموا فيها حتى لحقهم الموت . وكذلك توفى كرشنا وارتفع الى السماء . ولم يبق الا « يودشترا » الذى توفى هو الآخر بعد حين وارتفع الى السماء حيث كان فى انتظاره اخوته وكرشنا . فعاشوا جميعا فى السماء الى جوار الآلهة فرحين مستبشرين . وكان الاله « اندرا » رفيقهم فى هذه الحياة السماوية .

تحتل هذه الملحمة مكان الصدارة بين الآداب السنسكريتية بل الآداب الهندية كلها . لانها تعد مادة خصبة للآداب الهندية على اختلاف انواعها وفروعها ، وذلك لأنها تحتوى على قصص فرعية كثيرة - كما قلنا - حكاها السكينة والزوار لهؤلاء الاخوة الأبطال أثناء محتتهم فى الغابة . وهذه القصص هى التى استخدمها ادباء اللغة السنسكريتية مادة دسمة لقصصهم ومسرحياتهم مثل « شكنتلا » و « نالا » و « دامايانتى » . و « ساوترى » و « ساتياوان » (١) .

وكذلك تعتبر هذه الملحمة آية فى الأدب والفن بغزارة مادتها الأدبية والفنية . فهى تصور الأحداث والوقائع تصويرا دقيقا ، وتصف الشخصيات وصفا ممتازا بحيث تتميز الشخصيات من الرجال والنساء ، وتبرز صفاتهم وتتجلى رؤيتهم . وهذه الظاهرة لا تظهر بوضوح فى كثير من الأعمال الأدبية والفنية التى ظهرت فى اللغة السنسكريتية فيما بعد ، اذ اتنا نلمس فى تلك الأعمال المتأخرة الخلط والتشابه والتجانس بين الشخصيات وصفاتهم ومميزاتهم . وهذا يدل على براعة مؤلفي المهابهاراتا وتفوقهم فى الأدب والشعر

وطول باعهم فى الوصف والتصوير (١) . ومع ذلك فان المهابهاراتا ينقصها بعض النواحي الفنية الأخرى مع كل الأسف ، ولا ندرى كيف أفلت الزمام من شعراء المهابهاراتا فى هذه النواحي ؟ . وذلك لأن الشعر السنسكريتى فى هذه الملحمة يغلب عليه فى بعض الأحيان - جو الخشونة والجفاف . لان الشعراء لا يصفون على المشاهد والمناظر شيئا من الجمال والروعة ، ولا سيما حين يصفون الطبيعة الفتانة والمناظر الخلابة مثل: الصباح والمساء والأزهار والأنهار والمياه . وكذلك نشعر ببعض الهنات فى الشعر من حيث القواعد والعروض . وهذه ظاهرة غريبة لا نجد لها مبررا ، (٢) ولا سببا . مع ان اللغة السنسكريتية قد نضجت فى هذه الآونة نضجا تاما كما توفرت فى ادبائها وشعرائها جميع المميزات والخصائص التى ينبغى التحلى بها للقيام بمثل هذه الأعمال الأدبية الجليلة .

كما ان هذه الملحمة تعتبر مادة خصبة خلفية للمسرحيات السنسكريتية الشهيرة ، كذلك تمهد السبيل لظهور اساطير خالدة امتازت بها الهند وتبوأ مكائنها الخالدة بين الأساطير العالمية بسبب اصالتها وغرابتها وجمالها .

وتشبه هذه الملحمة فى بعض الأحيان الملحمة الهندية الشهيرة « الرامايانا » اذ أن كلا منهما تصف النفى ومحنة الابطال فى الغابات الهندية وعيشهم فيها لمدة طويلة تتراوح بين اثنتى عشرة الى أربع عشرة سنة . كما ان سيتا يخطفها « راون » ملك سيلان ، ويخوض « راما » زوجها الحرب

(١) The Ramayana and the Mahabharata p. 330

(٢) نفس المصدر السابق .

ضده ، ويسترجعها ، وكذلك أثناء النفي يخطف ملك بلاد السند وحليف « دوربودان » الملكة داريوبادى ويحاربه ارجن واخوته من أجلها وينتزعونها منه .

وعلى الرغم من هذا التشابه فنحن نلحس فروقا واضحة بينهما ، اذ ان الرامايانا تسودها القيم المعنوية وذلك لأن أبطالها يشلون القيم الاخلاقية الرائعة فى حياتهم وسلوكهم حتى فى حروبهم ، كما ان « سيتا » نراها - بجانب وفائها لزوجها واخلاصها له وتضحيتها من اجله - امرأة مثالية متصفة بالأخلاق العالية مثل التواضع والصبر والصمود والعفة . وكذلك « درايوبادى » فهى الأخرى مخلصه لزوجها ووفية له ، الا انها امرأة يمتلىء قلبها بالثورة والغضب والثأر من الأعداء . ولا يكاد يطمئن قلبها الا بعد القضاء على الأعداء والثأر منهم . وكذلك دارت الحرب فى المهاباراتا بدون اسباب معقولة . لان اتزاع عرش ابناء باندو لم يكن هدوا عليهم بالمعنى الحقيقى بل خسروه بالمقامة . وبجانب ذلك فان هذه الحرب جلبت الويلات لنهند كلها كما تصف الملحمة . وكذلك لا نجد عند أبطال هذه الملحمة تلك المبادئ السامية التى يتصف بها أبطال الرامايانا . لانهم يصرون على موقفهم العدوانى ولا يتراجع احد عن موقفه تجنباً لسفك دماء الأبرار لأسباب تافهة . وهذا هو السبب ان الكتاب الأفرنج يفضلون « الرامايانا » على اختها المهاباراتا ويعتبرونها ملحمة مثالية تصور طبيعة الهند ومبادئ دينها السامية ، على حين يرون فى المهاباراتا الأنانية والخراب والدماء . وكذلك يرى هؤلاء الباحثون ان الملهمة « درابادى » وشعورها الانسانى ورغبتها الشديدة

فى الحياة المادية تشبه المرأة الأمريكية فى هذا العصر . وخالصة القول ان موضوع الرامايانا عند كتاب الأفرنج هو المرأة والبيت وأما موضوع المهاباراتا فهو الرجل والحرب (١) .

وكذلك قارن الكتاب والباحثون الأفرنج بين المهاباراتا والملحمة اليونانية الشهيرة « الالياذة » التى فيها « هوميروس » (٢) . اذ تصور الالياذة الخلاف الناشئ بين « اجاممنون » قائد الحملة اليونانية ضد طروادة ، وبين اشجع أبطال اليونان « اخيليوس » الذى يقرر الانسحاب الى خيمته والتوقف عن القتال لغضبه على « اجاممنون » . ونتيجة لانسحابه يتعرض اليونانيون لخسائر فادحة ومصائب عديدة . فيقررون ارسال وفد لاسترضائه . ولكنه يردهم فاشلين . فيضطر صديقه الحميم « باتروكلوس » الى التدخل ، فيسمح له « اخيليوس » بأن يرتدى درعه ويحارب مع صف اليونان فينزل ساحة الوغى ويلقى مصرعه على يد البطل الطراودى « هيكتور » . ثم يشن « اخيليوس » معركة فاصلة بالاشتراك مع « اجاممنون » على « هكتور » ويقتلانه .

واوجه التشابه بين الملحمتين ان كلا من الالياذة والمهاباراتا يصور حضارة واحدة تقريباً ، اذ أن الأبطال فى كلتا الملحمتين يحاربون على العربات ، والعربات كانت شائعة الاستعمال فى كل

(١) The Wisdom of India p. 122-124

(٢)

(٢) وهو أعظم شعراء اليونان . وقد وصفه نقادهم بأنه البداية والنهاية وانه معلمهم ونبيهم وباعث نهضتهم . نظم الالياذة والوديسا باللهجة الأيونية التى امتزجت بكثير من الألفاظ الأيولية . وقد عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد فى آسيا الصغرى ؟ (انظر : مادة « هوميروس » فى « الموسوعة العربية الميسرة »

من الهند واليونان فى هذه الآونة ، ثم استخدمت الخيول لهذا الغرض . (١) كما نجد فى كل من الحضارتين - كما تصف هاتان الملحمتان - رعاية الغنم والأبقار وشن الغارات عليها للاستيلاء عليها (٢) . وكذلك نجد ثمة تشابها فى الاهتمام بالآلهة واجراء الحديث على ألسنتها والتقديس لها . وناهيك بوعورة الأسلوب فى الملحمتين وعدم الدقة فى البحور فى بعض الأحيان .

وبالإضافة الى ذلك فإن الإلياذة تصور التنافس بين البطلين وهما « اخيليوس » و « هكتور » كما وجدنا التنافس فى «المهابهاراتا» بين «ارجن» و «كارنا» . هذا وتشمل كل من الإلياذة والمهابهاراتا حياة بلادهما وتقاليدهما وحياة شعوبهما واحاسيسهما وعبقريتهما . وهما بمثابة موسوعة كبرى لحياة الأمتين العظيمتين ومعارفهما . وكما ان المهابهاراتا تمنح مادة خصبة خلفية للأساطير الهندية وقصصها ، كذلك تلعب الإلياذة دورا كبيرا كإطار خلفى لكثير من الأساطير اليونانية وأعمالها الأدبية الخالدة (٣) .

ومن الناحية الدينية ترسم المهابهاراتا خطوطا واضحة المعالم للديانة الهندوكية التى يسير عليها الهندوس حتى يومنا هذا . فقد مرت الهندوكية بأفكار وفلسفات وعقائد عديدة منذ طفولتها حتى عصر نضوجها . وهذه الملحمة تصور المرحلة

الناضجة للفكر الهندوكى اذ ان « برهما » الذى خلق هذا الكون وبث فيه الحياة يحظى بمكانة خالدة فى العقيدة الهندوكية . وهو الذى خلق طبقة البراهما من الانسان اول ما خلق ، ثم تفرعت منها بمرور الأيام أربع طبقات رئيسية ، كل منها تؤدي وظيفتها ولا مفز لها من ذلك ولا هرب . وهذه الطوائف هى : البراهما والشتري والقاسيا والشودر . والبراهما هى الطبقة العليا التى هى طبقة الكهنة ورجال الدين ، ووظيفتها التسك بالقيدا - الكتاب المقدس - وقراءته ، وأداء الطقوس والمراسيم فى المعابد وعبادة الاله « براهما » الذى خلقها . وهذه الطبقة تتسم بلونها الأبيض وتتصف بجميع الصفات الانسانية العالية والمبادئ الخلقية والروحية . ثم تأتى طبقة الشترى التى تناسب المبادئ العليا الخالدة ولكنها وقعت فى الملذات وتغافلت عن اداء واجباتها الدينية المقدسة . ولذا سميت بالشتري واتسمت باللون الأحمر . أما الطبقة التى اشتغلت برعاية الأبقار والغنم وممارسة الزراعة والأعمال الأخرى وأداء الواجبات الدنيوية وتغافلت عن أداء واجباتها الدينية ، فقد اتسمت باللون الأصفر وسميت بالقاسيا . أما طبقة الشودر فهى طبقة المنبوذين لأنها ارتكبت المعاصى وهتكت المحارم ، واشتغلت بجميع الوظائف دون التمييز بين الحسنة والدنسة منها . وهى تتسم باللون الاسود (١) .

وهذه الطبقات الأربع تلوح فى أبداع مظاهرها فى ملحمة المهابهاراتا بين حين وآخر ، وتتجلى بخصائصها ومميزاتها ووظائفها . ولأول

(١) انظر مقال الأستاذ : The Legacy of India p. 2 H.G. Rawlinson

(٢) The Ramayana and the Mahabharata p. 231

(٣) نفس المصدر السابق .

مرة نلمس هذه الظاهرة بهذا الوضوح في هذه الملحمة الشهيرة التي تضع حجر الأساس للديانة الهندوكية الأصيلة .

وإذا صور « القيدا » المرحلة البدائية للديانة الهندوكية الآرية وإيمان الهندوس بالآلهة والأساطير فإن هذه الملحمة تعتبر خطوة أخرى في إبراز كيان « نظرية الأوتار » وهي تقمص الآلهة شخصية إنسانية مثل « كرشنا » . وقد سبق أن صورت الرامايانا هذه الظاهرة ، إذ تقمص الآلهة شخصية راما بطل الملحمة لهداية البشرية ان نظرية الاوتار تعد الجانب الهام في الحياة الهندوكية على مدى العصور ، إذ يؤمن بها ملايين الهندوس على اختلاف طبقاتهم واجناسهم . اما تصوير الله سبحانه منزها من هذه المظاهر وعرضه لها واحدا كما يصف الاسلام فلا نجده الا في الطبقة العليا من رجال الدين وذلك كما يصوره لنا كتاب « اوبانيشاد » الفلسفى .

واما بعض أبواب المهابهاراتا الخالدة التي تشكل « جيتا » - الكتاب المقدس - فقد احتل مكان الصدارة في الحياة الهندوكية . ويبدو لنا من خلال دراسة هذه الملحمة أن مؤلفيها قد استهدفوا من ورائها نشر مبادئ كرشن - التي تعتبر خطوة هامة ونظرية متطورة للديانة الهندوكية - بين الهندوس على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الفكرية بأسلوب أدبي رائع وعرض جذاب عن طريق هذه الملحمة الخالدة التي شغلت حياتهم وأوقاتهم وملكت وجدانهم وشعورهم وتأصلت في نفوسهم وقلوبهم .

ولما اتصلت الهند باليونان اثناء فتح الاسكندر لكثير من بلاد الشرق ، تجاوزت الحضارتان ،

وتعرفت اليونان على التراث السنسكريتى ومن بينه ملحمة المهابهاراتا ، كما عرفت أوربا كلها فيما بعد . وكذلك اتصلت بالهند أيام الحضارة البوذية كل من : الصين واليابان والسيام وبورما وكثير من بلاد آسيا ؟ وقد ساعدت هذه الظاهرة على تسرب الأفكار الهندية وتراثها الى تلك البلدان ، وبهذا وصلت المهابهاراتا الى تلك البلدان التي نجد أثرها واضحة في آداب تلك الشعوب وفنونها (١) . وكما قلنا فيما سبق ان هذه الملحمة قد ألقت باللغة السنسكريتية الرفيعة ، وبالقالب الشعرى . يرى الباحثون كذلك ان الأوزان والبحور غير دقيقة فيها في بعض الأحيان كما يتخللها النثر بين حين وآخر . ومن هذه الناحية تفوقها الرامايانا كما تفوقها أيضا في الدقة والوصف والتصوير والجمال والروعة . وكذلك تنتص المهابهاراتا أحيانا الرقة والصفاء بالقياس الى الرامايانا أحيانا .

وقد نظمت هذه الملحمة في ١٠٠.٠٠٠ بيت على حين نظمت الرامايانا في ٢٤.٠٠٠ بيت ، وبهذا تزيد المهابهاراتا ضخامة على الرامايانا وعلى الالياذة والأوديسا جمعاء (٢) . ويتكون كل شطر من البيت بست عشرة كلمة هجائية كما هو المعروف في الشعر السنسكريتى . وبسبب هذه الضخامة الهائلة لم تحظ هذه الملحمة بترجمتها الى اللغات الهندية أو الأوروبية في وقت مبكر . بل وجهت العناية الى هذا الجانب في العصور اللاحقة .

ولعل أول ترجمة ظهرت لها في القرن الرابع عشر الميلادى ، ثم في عصر السلطان ناصر شاه ثم

The Legacy of India p. 195
F.W. Thomas

(١) انظر مقال الأستاذ

Hindūism by K.M. Sen p. 76

(٢) انظر :

السلطان غياث الدين الى اللغة البنغالية والى لغات محلية أخرى^(١) ، ثم وجهت العناية الى ترجمتها الى لغة تلغو - احدى لغات جنوب الهند - فى القرون الأخيرة . وقد ترجمها الى هذه اللغة الأستاذ « الأستاذ تيكرا نا » ، كما ترجمها الى البنغالية الأستاذ « كاسى رام داس »^(٢) . وقد حاول ترجمتها الى الشعر الانجليزى الاساتذ « Sir Edwin Arnold Pratatchandra » ، ولكنه لم ينجح فى مهمته اذ انه لم يستكمل ترجمتها ، وأخيرا شمر الأستاذ عن ساق الجدلا داء هذه المهمة الكبيرة وترجمها الى الشر الانجليزى ، ونشرت هذه الترجمة كاملة فى عدة مجلدات فى مدينة كلكتا بالهند . ومن هذه الترجمة تنقل هذه النماذج التى تدل على منهج المهابهاراتا وعلى أسلوبها .

ويحكى « ساوتى » - الكهنوت الشهير - ، وهو ابن « لدوماهارشانا » والذى ورد ذكره فى « برانا » - الكتاب المقدس - ، ذلك الكتاب الذى يعتبر خلاصة كتب القيدا المقدسة . أصل المهابهاراتا وكان « ساوتى » قد قرأ بنفسه هذه القصص فى « برانا » ، وشاهد القربان الذى قدمه « كولباتى » للآلهة ، وزار المناطق التى دارت فيها رحى حرب المهابهاراتا الدامية . ثم دخل دير الرهبان فى غابات « ناي ميثا » ليحكى لهم هذه الملحة المقدسة . فيعرب الرهبان عن رغبتهم الشديدة وشوقهم الزائد للاستماع الى هذه الملحة التى سمعوها من قبل ، وقرأوها فى كتاب « برانا » . ونقدم هنا ترجمة الفصل العشرين من

The wisdom of India p. 122
and Hinduism p. 72

(١)

The Legacy of India p. 381

(٢)

المهابهاراتا لما ورد على لسان « ساوتى » ، وذلك لان هذا الفصل يصور المادة الخصبه للاساطير الهندية التى تطورت فيما بعد . واصبحت الهند بفضلها رائدة الاساطير العالمية .

يحكى « ساوتى » : وهكذا كانت قصة الاله « امرىتا » الذى حرك أمواج البحر وطحنها ليخلق منها « اله الخيل » وهو « اوشاشا شراقاس » الذى يملك طاقات هائلة ويتسم بجمال ساحر . وبسببه تمت المراهنة بين الالهتين والأختين وهما : « كادرو » و « قيناتا » . فقالت « كادرو » لاختها « قيناتا » : يا اختى الحبيبة ، اخبرينى بدون تمهل : ما هو لون « شاشا شراقاس » ؟ . فأجابت « قيناتا » فورا طبعاً انه أبيض اللون . اليس كذلك ؟ اخبرينى ما رأيك ؟ . هل توافقين على المراهنة فى هذا الصدد ، لانتى متأكدة مما قلت . فردت عليها « كادرو » حالا : يأتيتها المبتسمة ، لابد أن يكون ذيله أسود اللون ، واذا لم يكن كذلك فسوف تملكيننى . واذا كان الامر كما اقول فسوف املكك وتصبحين أمتى حينذاك . وهكذا تمت المراهنة بينهما .

ثم اضاف « ساوتى » قائلاً: وقد عادت الاختان بعد المراهنة الى بيوتهما لاختبار أمير الخيل فى اليوم الثانى للتأكد من لونه . ولقد حاولت « كادرو » ان تصنع حيلة تؤدى الى نجاحها فى المراهنة . ولذلك أمرت أبناءها الألف بتحويل شعراتهم الى شعرات سوداء وتغطية ذنب أمير الخيل بهذه الشعرات السوداء . وذلك لتكسب المراهنة وتملك اختها . ولكن اولادها أبوا تنفيذ أمرها . وهؤلاء هم الثعابين . فغضبت الام وصبت عليهم جام غضبها ودعت عليهم ان يملسكهم

« جانا مى جانا » ملك طائفة ياندوا اثناء تقديمه
القرايين لآلهة الثعاين ، وان يأتى اله النار ويأكلهم
جميعا . وقد سمع « براهما » اله الآلهة ، وهذه
اللعة ، ولكنه لجأ الى الصمت تجاه القدر ، لأن
الأمر كان قدرا مقضيا .

وبمرور الأيام كثرت الثعاين عددا ، وانتشرت
فى الدنيا ، وزادت قوتها ونفوذها ، وعم شرها ،
فدعرت المخلوقات كلها بطغيانها وعدوانها وسمومها
الفتاكة القاتلة . وفى مثل هذه الظروف شاور
« براهما » جميع الآلهة فى شأن الثعاين ، وشكر
امها التى دعت عليها لانتفاذ البشرية من فتكها .
وقال اخيرا : ان القدر احسن وسيلة لعقاب
الظالمين ومجازاة الصالحين . وطبقا لسنة هذا
الكون ينبغى معاقبة الثعاين بأشد أنواع العقاب
وذلك بسبب جرائمها البشعة التى ترتكبها ضد
المخلوقات كلها بسمومها القاتلة وعدوانها الظالم .

فشاور الآلهة جميعا فى هذا الأمر ، وقرروا نهائيا
تنفيذ دعوات امها عليها . فأمر « براهما »
باحضار الاله « كاسيابا » وقال له : ايها الطيب ،
انك دائما مع الصالحين وتجزئهم على اعمالهم
الحسنة ، وضد الظالمين وتعاقبهم بأشد أنواع
العقاب . انك انت سبب ظهور هذه الثعاين التى
تقتل الابرياء بسمومها القاتلة وتعتدى باجسامها
القوية . وانت على علم ان لعنة امها سوف
تصيبها . فلا تحزن يا ابنى من ازال عقاب شديد
على هذا المخلوق الشرير ، لان ذلك محتوم منذ
الأزل ، ثم اعاد الى قلب « كاسيابا » سيكونه
واطمئنانه ، وكشف له اسرار خلق سم جديد
لازالة مفعول سموم الثعاين .

وبهذا ينتهى الفصل العشرين من ملحمة
المهاباراتا .